العربي بنعبد الله

ذاكرة مناضل

1955 - 1943

70 العلامة السيد عبد الواحد بنعبد الله

الشيخ عبد الواحد بنعبد الله من العلماء المحدثين الذين تشبعوا بروح وطنية صادقة وصامدة منذ نعومة أظافره، فكان من بين العلماء القلائل الذين اشتهروا بموقفهم الجسور في وجه المستعمر الرافضين للانصياع لأوامر الإدارة الاستعمارية وخصوصا إبان الأزمات العصيبة التي كانت ترمي إلى تزكية الإجراءات التعسفية والتي كانت تمارسها ضد الشعب أمام الرأي العام في الداخل وفي الخارج.

لقد كان هذا الرجل لا يخشى ردود الفعل المحتملة من الإدارة على مواقفه الجريئة. كان صريحا يصدح بالحق ويرفض كل مساومة في هذا الشأن، ساومته الإدارة الاستعمارية بواسطة عملائها المتهافتين على إرضائه فرفض كل العروض التي اقترحتها عليه لأنها أتت في أوقات غير عادية ومشكوكا في عفويتها ويعدها إغراء له لغرض في نفس يعقوب، إذ لم تكن له أدنى ثقة بحسن نية مخاطبيه، مرة استدعاه الصدر الأعظم محمد المقري. وكان الشيخ عبد الواحد وقتئذ قاضي بمحكمة الاستئناف الشرعي فطلب منه أن يعوض الكتابة بالحبر نص الفتوى في طرة الملفات المعروضة على أنظاره ويعوضها بالكتابة بقلم الرصاص ليتسنى للإدارة تغيرها إذا اقتضت مصلحتها ذلك، فرفض رفضا باتا هذا الطلب معللا موقفه هذا بأن لا هوادة ولا مساومة في الحقوق وأن أحكامه ترتكز دائما على القوانين الشرعية التي أنزلت من عند الله في القرآن الكريم والسنة، وأن يرفض أن يكون مطية للجور والباطل، تضايق الصدر الأعظم ولم يجد ما يرد به على مخاطبه إلا أن يعيب عليه بعدم " السلوك " ويقصد هنا التغاضي وترك التعصب والتطرف. هنا ثارت ثائرة الشيخ عبد الواحد فلم يجد بدا من الإجابة بما معناه : ابحث لك عن إمعة أو سمسار ليداريك في تنفيذ طلبك أما أنا فلست من طبقة هؤلاء، لذلك ستصلكم حالا استقالتي، وكذلك كان برغم تدخل زملائه محاولين اقناعه بالرجوع عن قراره فرفض.

كان لهاته الوقعة صدى كبير في الأوساط، وزاد احترام الجمهور لهذا الرجل المضحي بوظيفته السامية حفاظا على مبادئه التي لاتقبل أية مساومة. ولقد تجلى هذا الاحترام في تزايد عدد المترددين على دروسه اليومية التي اعتاد إلقاءها بمسجد مولاي سليمان بعد صلاة العصر حيث تضاعف هذا العدد بشكل مفاجئ لم يكن منتظرا.

وبقي السيد عبد الواحد بنعبد الله دءوبا ومثابرا على دروسه عدة سنوات إلى أن حل اليوم الموعود، وهو يوم الجمعة 4 يناير 1952 والأزمة بين القصر الملكي العامر والإقامة العامة على أشد ها ألقى درسه الذي هنأ فيه القطر الليبي بحصوله على استقلاله من الاستعمار الإيطالي، وفي سياق حديثة على هذا الحدث العظيم، استنهض العلامة عبد الواحد بنعبد الله الهمم وأذكى روح النضال في سبيل الوطن والتضحية بالنفس والنفيس خصوصا لدي النساء وأورد أمثلة لأمهات المسلمين في جهودهن وقيامهن بمسؤوليات لا تقل أهمية عما قام الرجل في نفس المجال مدى التاريخ، واختتم درسه بمثال أثار نعرة المستعمر الفرنسي. وهذا المثال هو "جان دارك" التي قادت الفيالق الفرنسية ضد المهاجم على بلادها فأصبحت بطلة بالرغم عن اعتقالها من طرف العدو وإعدامها حرقا بمدينة روان الفرنسية.

أجل أثارت هذه الشهادة حفيظة المستعمرين لأنهم لم يسبق أن سمعوا بمثل هذه المقارنات التي من شأنها أن تزيد في الطين بلة بالنسبة لهم. ألقي القبض في الحال على العلامة عبد الواحد بنعبد الله وقدمته للمحاكمة بدون مراعاة ولا تقدير لما يمكن أن تخلفه هذه النازلة في الأوساط الشعبية التي أحبت هذا الرجل الذي كانت له القدرة لتبليغ كل ما يريده بدون عناء لهذه الشرائح البسيطة المتعطشة للفهم والتوعية. لقد اكتظت جوانب مقر المحاكمة بالجماهير منتظرة النطق بالحكم على الشيخ عبد الواحد. وأثناء المحاكمة، أظهر العلامة ثباتا ورسوخا لآرائه وما ورد في الدرس الذي يحاكم من أجل محتوياته. وأقر بوضوح وجلاء تشبته برأيه في موضوع "جان دارك" وبصفته عالما فإنه يرفض رفضا باتا أن يملي عليه أحد كيف ما كان ما يجب أن يقوله أو لا يقوله في دروسه. كما أنه ينوي متابعة دروسه على المنوال الذي سار عليه.

وأمام هذا الموقف البطولي حكم عليه بثمانية عشرة شهرا سجنا نافذا، تهامس الحضور فيما بينهم بأن سياسة الإدارة الفرنسية قد أصبحت خرقاء وتتخبط في اللامعقول وأن من شأنها إذا ما تمادت على حالها هذا أن تغرق البلاد في فوضى عارمة لا أول لها ولا آخر. أيعقل أن يحكم على عالم جليل بسنة ونصف حبسا لا لشيء إلا لكونه روى قصة البطلة جان دارك في درسه؟ ولكن هذا هو الاستعمار وهذه هي سياسته.

قامت القيامة ولم تقعد حيث وجه علماء المدن المغربية عرائض احتجاجية إلى صاحب الجلالة الملك المعظم يلتمسون منه التدخل لإطلاق سراح عالمنا الموقر وخطباء المساجد المقبوض عليهم ومثيلاتها لرئيس الجمهورية الفرنسية، ومن بين العرائض المذكورة نجد عريضة الرباط، عريضة علماء الدار البيضاء ومدينة سلا وحاضرة فاس (علماء جامعة القرويين) وعريضة علماء مكناس وعريضة علماء وطلبة كلية ابن يوسف بمراكش وعريضة علماء أسفي.

واهتمت الصحف الفرنسية بالموضوع ونشرت تعاليق كلها تنديد بالحكم على عالم جليل لا لسبب إلا لكونه نوه بالموقف البطولي الذي وقفته "جان دارك" وخلصت إلى أن الحكم لم يعتمد على قانون وإنما هو نوع من الشطط وجهل بالسياسة وانعدام التعقل.

امتاز الشيخ عبد الواحد بنعبد الله من بين امتيازاته بذوقه الرفيع وحسن هندامه وجمال كسائه الأمر الذي زاده مهابة وجلالا، كان طويل القامة، نحيل البدن، مبتسم الثغر. ومن خصائصه أنه يحب الموسيقى الرفيعة، إذ كان يتقن أداء الموسيقى الأندلسية حيث يحفظ الإحدى عشرة نوبة المشهورة. فكان يحيي بزاوية سيدي العربي بن السايح بمناسبة أعياد المولد ليالي بالأمداح النبوية. كان له صوت جهوري يؤهله لترديد "الألحان" أثناء هذه المناسبات. وقد قام، وهو بالسجن، بتلقين السجناء هذه النوبات الموسيقية هادفا بهذا تربية أذواق السجناء وتحسين طباعهم لأن الموسيقى تهذب الذوق وترفع من الأخلاق.

والجدير بالذكر أنه قبل بضعة أيام من ألقاء القبض على العلامة عبد الواحد بنعبد الله، قام بعض خطباء الرباط ضمن خطبهم يوم الجمعة بتهنئة الشعب الليبي الشقيق على حصوله على الاستقلال وأعربوا عن أمانيهم بأن

تستقل شعوب المغرب العربي كلها في أقرب وقت. وفي نفس اليوم تم إلقاء القبض على كل من العلماء السادة:

* العلامة الصديق الشدادي خطيب مسجد قصبة الأودية.

* العلامة الحاج محمد بن أحمد بن عبد الله خطيب الزاوية الناصرية.

* العلامة أحمد بلغازي خطيب الجامع الكبير.

قدم الخطباء لاستنطاقهم إلى محكمة الباشا، ولما بلغ الخبر إلى المواطنين بسرعة مدهشة، أغلق التجار دكاكينهم وتوجهوا إلى ساحة المحكمة التي غصت بالجماهير هاتفة بحياة صاحب الجلالة الملك محمد الخامس ومطالبة بسراح الخطباء. وقد وجهت عريضة إلى القصر الملكي ضمنتها احتجاجات سكان الرباط وسلا، بل كل أنحاء المغرب على هذه التصرفات المرفوضة في حق علماء يقومون بتعمير بيوت الله وتلقين المؤمنين تعاليم دينهم الحنيف.

للعالم الشيخ عبد الواحد بنعبد الله جانب مهم تتحلى به شخصيته، إنه الجانب الروحي الذي جعله في طليعة المتصوفين، أخذ تصوفه عن والده علي بنعبد الله الذي تصوف عن شيخه في الطريقة الأحمدية التيجانية الولي الصالح سيدي العربي بن السايح، وهو الذي قدمه على الزاوية التيجانية بالرباط وأجازه بسائر الوظائف وأذكار الطريقة.